في عالم النقد

السلسلة والغفران

مسرحية جديدة للأستاذ علي أحمد با كثير

في عنق النقد للأستاذ علي أحمد با كثير دين كبير ، فقد أنفق الأستاذ شبابه وهو لا يفتأ يضيف إلى المكتبة العربية ثروة هي أشد ما تكون افتقاراً إليها بقصصه ومسرحياته التي يخرجها تباعاً والنقد لا يكاد يتابعها ! ولقد قاربت مؤلفاته — فيما أعلم — العشرين ، وما أحسب النقد أولاها عشرين كلمة منه !

إن النقد مقصر جدا في ذات الأستاذ علي أحمد با كثير ، وفي ذات الفن الذي ينهض به صابراً جلدا محتملا أشد صنوف التضحية والجهد والحرمان ، وإني لحاول أن أسد قليلا من هذه الثغرة السحيقة ، بتناول مسرحيته الجديدة التي ظفرت بجائزة وزارة المعارف — وإن كان ذلك ليس مما يسمو بها — والتي سماها « السلسلة والغفران »

وإذا أردنا أن نلخص هذه المسرحية في كلمات فإنه يمكن أن نقول : —

إن « عبد التواب بن صالح القدادي » اعتدى على « غيداء » زوجة صديقه الحميم « قاسم الفربي » في أثناء غيابه عنها ، فلما حملت منه وأراد إخراج ثمرة الإثم من أحشائها ، ماتت عند إجهاضها ، وعاش « عبد التواب » خيانه بعد ذلك نادما ، وصار كاسفا حزينا ، وركبه هم مقيم مقعد لما أتى من منكر شديد

وسارت الأيام ، وتزوج « عبد التواب » من الفتاة الصغيرة « كوثر » ابنة « إسماعيل المرزوقي » ، ثم حدث أن اضطر إلى الغياب عنها في تجارة له بالشام مع صديقه وشريكه « قاسم الفربي » وتركها في بيته وليس بها أثر من حمل ، ثم عاد فلم يجدها في بيته وإنما وجدها في بيت أبيها مريضة ملازمة فراشها ، ثم عرف أنها ليست مريضة وإنما هي حبلى ! . وعرف أن الذي أحبلها إنما هو « مستور » شقيق « غيداء » ضحيته من قبل !

ولكن « عبد التواب » يتستر على زوجته « كوثر » ويعود بها إلى منزله ، ثم تضع « كوثر » حملها ، وتأتي بغلام سموه « أسامة » يصطنعه « عبد التواب » على عينه ، وينشئه في ظله وبيته ، ويتخذه قرة عين له !

وتسير الأيام ويتزوج هذا المتدي الجديد « مستور » من « فوز » شقيقة « قاسم الفربي » وتضطره الحياة هو الآخر إلى الغياب عنها حيث يستدعى إلى ميدان القتال في حلب ، فيمضي إليه مخلفا عروسه الشابة ولما يمض على زواجهما غير أسبوعين ثم يعود هو الآخر كذلك فيجدها حبلى ! فما هو إلا أن يمسك بالسكين ويهوي بها على عنقها فيذبحها ذبح الشاة !

تقع هذه الحوادث تباعا يلاحق بعضها بعضا ، وفي صور متماثلة ، وعبد التواب هناك غارق في ندمه واستغفاره وضراعته إلى الله أن يعفو عما جنى ، حتى كلت قواه ، وضعفت منته ، وأحس قرب نهايته ، فدعا إليه بأم « غيداء » واعترف لها بجريرته ، ثم دعا إليه كذلك بزوجها « قاسم الفربي » واعترف له كما اعترف لها ، وطلب منهما العفو والمغفرة ، وألح عليهما في ذلك كثيرا حتى غفرا له وسامحاه ، فغفر الله له وسامحه ، وانقطعت السلسلة التي كانت متصلة الحلقات بقدرة أحكم الحاكمين ، ولولا ذلك لظلت السلسلة متصلة تتناول واحدا من الناس بعد واحد إلى نهاية لا يعلمها إلا علام الغيوب !

... هذا ملخص المسرحية ولبابها ، وهو — كما ترى — بسيط سهل قريب المأخذ ، يوشك أن يكون حكاية كتلك الحكايات التي نسمعها في بيوتنا من الآباء والأجداد . والعقدة في هذه المسرحية ذات غور ضحل تكاد أن تلمسه بيدك ، أو قل إنه لا عقدة فيها على الإطلاق ... ولكن الأستاذ علي أحمد با كثير — وهو المؤلف المقتدر والمسرحي البارع —

استطاع أن ينفخ الحياة فى هذه الحوادث البسيطة ، وأن ينفث فيها الحرارة ؛ فحرارة ولا شك قوى نابض ، وأشخاصه أحياء يتكلمون ، وليسوا كلاما يجرى على أفواه أشخاص هم أقرب إلى التماثيل المنصوبة كما يفعل الكثير من مؤلفينا الأفاضل، وبهذا استطاع الأستاذ أن يجعل من الحبة — كما يقولون قبة !

وقد بنى الأستاذ مسرحيته على نظرية « كما تدين تدان » ونص على ذلك صراحة ، فجعل الجانى فى كل مرة مجنيا عليه فى المرة التالية ، وهكذا حتى انكسرت السلسلة بفضل استغفار « عبد التواب » !

ووجه الرأى عندى أن نظرية « كما تدين تدان » ليست من واقع الحياة فى شئ ، فليس كل معتد اليوم معتدى عليه غدا ، فقد يسلم المعتدى من كل سوء ، وقد يقضى حياته فى جرائم متصلة دون أن يناله أذى أو قصاص ! ولكنها نوع من المثالية التى يبغى الأستاذ المؤلف أن تكون قوام الحياة وهيهات أن تكون !

على أن الناس لو آمنوا بنظرية « كما تدين تدان » وأشربتها نفوسهم حقا وصدقا ، لكان قعودهم عن إتيان الجرائم إنما هو عن يقين منهم بأنها ستحيق بهم وستدور عليهم ، لا عن إيمان بأن الجريمة فى ذاتها شر يجب على الإنسان ذى الخلق القويم أن ينأى عنه بجانبه ، ويكف عن ارتكابه ، سواء أدى إلى الإضرار بصاحبه أو انتهى إلى إسعاده ، فإن السعادة الناجمة عن ارتكاب الجريمة — فى نظر ذى الخلق القويم — إنما هى سعادة وحشية ينبغى الترفع عنها واحتقارها . والأستاذ المؤلف يعلم أن الكثير من الجرائم يؤدى إلى سعادة مرتكبيها ، وهو يعلم أيضا أن مصائب قوم عند قوم فوائد !

... هذا شئ : وهناك شئ آخر كنت أود أن أقف به طويلا مع الأستاذ على أحمد باكثير ومع المؤلفين عامة . ولكن هذه الكلمة لا تتسع له ولا تفى به ، وسأتناوله فيما أكتب من فصول فى النقد ، ولكنى أشير إليه هنا إشارة عاجلة . .

ذلك أن المؤلف الذى يخلق فى مسرحية من مسرحياته مثلا ، شخصية رجل مجرم ، يرتكب فى المسرحية جريمة تضطرب لها النفوس وتغضب وتثور ، ثم ينزل المؤلف بهذا المجرم ما يستحق من قصاص فى نفس المسرحية فإنه بذلك لا يكون قد فعل شيئا ! ! إن المؤلف الذى يفعل ذلك يكون قد قام بدور المؤلف والقارئ معا ، ولعله يجهل أن للقارئ دورا هاما فى مؤلفه ! ! أى أثر يستبقيه المؤلف الذى يفعل ذلك فى نفس القارئ وقد أرضاه بهذا القصاص الذى أنزله بالمجرم فهدأ به ثورته وحجابه غضبه ؟ وجعله يخرج من مشاهدة المسرحية أو من قراءتها سعيدا مسرورا مستريح البال ناسيا كل ما كان ؟

يجب أن يفهم المؤلف أن القارئ ليس طرفا فى الموضوع فحسب ، بل إنه الطرف الأهم الأعم ، إن القارئ هو « الحياة » ومن واجب الكاتب أن يجعل الحياة — أى القراء — تحارب الجريمة وتضطهدها وتعاقبها وتمحقها رويدا رويدا ، وبهذا وحده تتطهر الحياة من الشرور والآثام ، وبهذا وحده تتطور الحياة وتتقدم ، أما أن يجمع الكاتب بين وظيفة الكاتب والقارئ معا ، فلا يترك القارئ إلا بعد أن يجرده من كل عاطفة ومن كل انفعال ، فلا سخط ولا إعجاب ولا ثورة ولا غضب ولا شئ من أمثال هذه العواطف ، . . . فإن هذا الكاتب لم يزد على أنه كان يزجى فراغ القارئ كما يلعب معه « الطاولة » أو « الكوتشينة » ! .

— لا أريد من الكاتب أن يشفى القارئ مما تتركه القراءة بنفسه من غيظ وثورة وموجدة على الجناة والآثمين ، فلا يحل القضايا التى يعرض لها حلا مهدأ له نفس القارئ وتنسى ما قرأت أو ما شاهدت ، بل أريده على أن يحفر فى نفسه أثرا عميقا ، وأن يهيج فيه جرحا لا يندمل إلا أن تتطهر الحياة وتسلم من الأدران والموبقات ...

فلو أن الأستاذ على أحمد باكثير — مثلا — جعل « عبد التواب » معتديا على عرض « فيداء » أو جعل « مستور » معتديا على عرض « كوثر » ثم لم يجعل من كل منهما معتدى عليه بعد ذلك ، بل أبرز أثر اعتدائه على المجتمع وعلى أشخاص المعتدى عليهم — وهم كثيرون غير فيداء وكوثر كالأزواج والآباء والأمهات — والتمس الوسائل الكثيرة لتهييج الناس عليهم ، وإثارة حفيظتهم نحوهم ، ومطاردتهم أينما وجدوا ، ثم تركهم على هذا النحو ؛ لكان أدعى إلى أن تغلى قلوب الناس

حقدا وكراهية لكل معتد على الأعراض، وتظل ذاكرتهم تختزن ما فعل « عبد التواب » و « مستور »، أما أن يحاول المؤلف أن يؤكد للقارئ أن القادر ستفعل بالجانى مثل مافعل، وستتولى هى أن تجعل المعتدى معتدى عليه لا مناص له من ذلك ولا منجاة، فقد أراح القارئ وسره وأفرحه، وأخلاه من كل مسئولية عن مفاسد هذه الحياة !!

وأريد — بعد هذا — أن أقف مع الصديق المؤلف وقفات قصيرة أناقش معه فيها بعض الأمور :—

١ — فكيف استطاع « عبد التواب » — وهو إنسان من لحم ودم وبه غرائز الناس لا سمو الملائكة الأبرار — أقول : كيف استطاع « عبد التواب » هذا أن يسمو هذا السمو كله ؟ ويتجرد هذا التجرد كله من غرائز البشر ؟ فيتستر — أولا — على زوجته التى حملت من غيره، ويأخذها فى رفق وهوادة، أو على الأصح فى جمود وبلادة، إلى منزله لتضع فيها حملها. ثم — ثانيا — يتخذ من وليدها ابنا له، ويقيمه معه فى منزله، وما إن يدخل المنزل كل مرة حتى يحمله بين ذراعيه، ويقبله من وجنتيه، ويقول له « أنت خير من هؤلاء جميعهم » أى من أهل البيت جميعا وفيهم ابنته من صلبه !! مما جعل « أم مستور » لا تملك تفسيرا لهذا إلا بقولها « لعل أهلها سحروه .. لعلهم عملوا له سحرا فارتضى هذه الدياثة وسكت عليها » !!. ثم — ثالثا — يجعل من هذا الولد وريثا شرعيا له مستجيبا فى ذلك لتلك الفتوى الفجة المبتسرة التى أفتاه بها القاضى « بكار » ؟؟.

قد يفسر الأستاذ المؤلف موقف « عبد التواب » هذا بأنه يكفر عن سيئته التى ارتكب، وبأنه يشعر فى قرارة نفسه بأنه سبب هذه الجنايات جميعها التى تمخضت عنها جنايته الأولى، وأنا لا أنكر على الأستاذ المؤلف أن لهذا بعض الأثر فى موقف « عبد التواب » ولكنى أنكر أن يكون الأثر نشازاً بعيداً كهذا عن الطبيعة الإنسانية التى من أشد غرائزها وأقواها الغيرة على العرض، والحقد على ثمرة زلة المرأة والنفور الشديد منه، وإذا كان الإنسان — الإنسان أيا كان — يضيق بولد المرأة من زوجها السابق وهو حلال، فكيف به مع ولدها من فجورها وهو حرام ؟

الحق أن الأستاذ على أحمد باكثير قد وضع « عبد التواب » فى موضع لا يتفق لإنسان كائنا من كان هذا الإنسان أن يقفه، وجعله فى درجة لا تكون إلا للملائكة الأبرار، ومسرحية الأستاذ المؤلف لا تعالج أمور الملائكة وإنما تعالج أمور البشر من أمثالنا الذين يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق !

٢ — ومن الظواهر التى يلمسها القارئ فى الرواية ظاهرة أحب أن يتجنبها الأستاذ الصديق ما وسعه جهده، وهى ظاهرة « الترشيح » .. فهو يرشح لكل حادثة من الحوادث المقبلة بما ينبئ عنها ويكشف عن سيرها قبل أن تقع ! فالقارئ يحس منذ الفصل الأول بأن السلسلة قد ابتدأت ! ويشعر بأنها ستدور على واحد إثر واحد ! فأم مستور فى الفصل الأول تدعو الله فتقول « اللهم يا شديد الانتقام انتقم لى منهم فرداً فرداً، اللهم لا تمت أحدهم حتى تنكبه فى زوجته بمثل ما نكب ابنتى غيداء ! » وتقول بعد ذلك لعبد التواب « ... انتظر ! الله هو الذى سينتقم منك وسيكون انتقامه عظيما » وهذا فى الحقيقة تصريح لا ترشيح ! ومثله أن تقول أم مستور عن ولدها « مستور » — وهى تعلم أنه المعتدى على عفاف « كوثر » — « إنه سيفترق عن عروسه ولم يمض على زواجهما غير أسبوعين ! كأن الله أراد أن ينتقم لكوثر منه ! » فمن أين لها العلم بما ستجرى به الأقدار فيما بعد ؟ ولست أحصى هذه الظاهرة عدا فى هذه المسرحية فهى كثيرة منتشرة فى أرجائها، وإنك لتجدها فى الأمور الصغيرة والحوادث البسيطة، وفى رأيى أنه يجب على المؤلف المسرحى أن ينأى عن الترشيح تماما فلا يكون بمسرحيته أثر منه فإنه يضعف وقع الحوادث فى نفس القارئ أو الشاهد، ويقلل من أثرها عنده، ويجعلها كالمادة المكرورة، ويخليها من الجدة التى تخلب لب الشاهد أو القارئ وتجذب انتباهه

٣ — وفى المسرحية بعض أخطاء لغوية قد لا يؤاخذ عليها المؤلفون المسرحيون، ولكن من كان مثل الأستاذ باكثير حفيا بلغته، قادرا على سلامتها، فإنه يكون هنا موضع المؤاخذة ! ولست كذلك محصيها عدا ولكنى مشير إلى بعضها، فلا يقول — مثلا — (ص ٦١) « لشد ما كانتا تتلهفان على أنبائك وتترقبان يوم قدومك » واستعمال الفعل « تلهف » بهذا المعنى

خطأ مشهور وصواب استعماله للحزن والتحسر ، تقول « لهف على الشئ وتلهف عليه » أى حزن وتحسر . وهو يقول (ص ٩٠) على لسان « آسية » حيث تقبل على صياح « أسامة » فتسأله « مالك تبكى يا حبيبى ؟ هل أحد ضربك ؟ » والأولى أن تقول « هل ضربك أحد ؟ » فإن الاستفهام هنا عن سبب البكاء أى عن الفعل . ويقول (ص ٩٦) على « آسية » مخاطبة « كوثر » عندما استنكرت مجئ « ميمونة » فى وقت الطعام « . . هل نسيت أن أهلك لا يؤخرون الغداء مثلنا إلى قرب العصر » واستعمال كلمة « الغداء » فى معنى طعام الظهر خطأ مشهور كذلك فإن « الغداء » طعام الغدوة التى تكون فى الصباح ، وعلى هذا المعنى جرى قول الله عز وجل « آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » ، وهناك بعض الهنات الهينات الأخرى نتجاوز عنها لأننا لم نبغ الحصر وإنما ابتغينا المثال !

وبعد : فلا يذهبن أحد إلى أن هذه المآخذ اليسيرة التى أخذناها على صديقنا تغض منه ، أو تنال من مكانته ، أو تزحزحه عن مركزه فى الصف الأول بين مؤلفينا

فلا والله ما هو عندنا إلا فى الصابرين المجاهدين من المؤلفين ، وما هو فى رأينا إلا من أولى العزم الذين نرقب منهم الخير الكثير

وما كلامنا هذا إلا تحية لجهوده الكثيرة المشكورة ، وتنويه بأثر من آثاره الضخمة التى ما حسبها تحتاج إلى تنويه

على متولى صلاح

البـــداية والنهاية

قصة للأستاذ نجيب محفوظ

للأستاذ ثروت أباظه

هى الوثبة الأخيرة التى وصل إليها قلم القصاص الكبير الأستاذ نجيب محفوظ صورة صادقة حية جياشة بالحياة عن الفترة التى تمر بها مصر اليوم .. أخذ نجيب فيها أشخاصه من الطبقة المتوسطة فهى عائلة كان عائلها موظفا يعيش بالنسبة إلى الحى الذى يقطن به عيشة رضية لا يقلقها المال كل القلق

وتقوم الرواية بعد موت هذا العائل فأسرته بعده فى حيرة كبيرة لا يدرون كيف يواجهون الحياة ولا مال لديهم ولا سند لهم وأفرادهم كثر والحال ضنك . كبير العائلة « حسن » شاب لم ينل من التعليم إلا حظ المقل الذى لا يغنى ، وأخواه الصغيران طالبان مازالا فى تعليمهما الثانوى ، وأختهما بنية ليس لها فى الدنيا عن قبحها إلا قول أبيها — رحمه الله — إنها خفيفة الظل . . ولا يبق بعد ذلك إلا الأم وهى كل شئ ... سيدة حازمة قوية أدركت الموقف وواجهته فلم تنظر إلى ابنها الأكبر إلا نظرة الإشفاق عليه والخزى من نفسها أنها لم تستطع أن تقوم على تربيته قياما صالحا ، ولكنها لا تفوت هذه النظرة الشفقة الآسفة دون أن تفيد منها عبرة صالحة تنفعها وهى تخطو بولديها الآخرين إلى طريق الحياة ، وهكذا تجد الأم لا تترك شيئا دون أن تفيد منه . فابنتها تجيد الحياكة وكانت تقوم بها ترويحا عن النفس فلتقم بها حرفة تكسب منها المال ، وولداها يأنفان أن يملآ بطونهما من طعام الغداء فى المدرسة فهى تحتم عليهما أن يكتفيا من طعام المدرسة فالعشاء قد ألغى من البيت . وهكذا أخذت تدبر الأمور فى تصميم قاطع واثقة أن جلدها لن يتخلى عنها

وسار الأولاد كل فى طريقه الملتوى أو السوى . فحسن لا يريد أن يحصل على عمل إلا إذا كان موافقا لمزاجه .. ومزاجه أرعن عربيد فهو يطوف بالأعمال الهزيلة الواحد بعد الآخر ، وتطوف به البطالة الطويلة فيلازمها حتى ينتهى به المطاف إلى حانى مقهى « بدرب طياب » فى أقذر مباءات القاهرة، ولا يكتفى بهذا الكسب بل هو يعمل فى تجارة مخدرات ضيقة الحدود

وأكبر الولدين يحصل على التوجيهية فتجتمع العائلة لتنظر فى أمره ولكنه كان شبيها بأمه وقتيا فى نظرته فهو يخبرهم أنه انتوى التوظف ليوفر لهم بعض العيش